أثر الدعاء والتضرع في الحياة الطيّبة

الشيخ الدكتور عدنان فرحان خميس القاسم

باحثٌ في الفكر الإسلامي وأستاذٌ جامعي / الجامعة المستنصرية

ملخص البحث

يعدّ الدعاء من أنجح الوسائل للوصول إلى الحياة الطيّبة التي أَرادها الله سبحانه وتعالى لعباده الصالحين. وللدعاء والتضرع إلى الله سبحانه مساحةٌ واسعةٌ في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة المروية عن النبي ﷺ، وأهل البيت عليهم السلام.

ولقد أمرنا الله بالدعاء؛ وضمن لنا الإجابة، فقال سبحانه: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر:٦٠]. وقال عزّ وجلّ: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة:١٨٦].

وجاء في الحديث الشريف، فيما وعظ به الله عيسى عليه السلام: "يا عيسى، أدعني دعاء الحزين الغريق الذي ليس له مغيث، ولا تدعني إلّا متضرعًا إليّ، وهمك همًّا واحدًا، فإنّك متى تدعني كذلك أجبتك"(١).

وللدعاء والتضرع آثارٌ كثيرةٌ من أهمها الوصول إلى الحياة الطيّبة التي أرادها الله بلطفه لعباده الصالحين. وفي هذا البحث المختصر سوف نستعرض ومن خلال الأدلة القرآنية والروائية (أثر الدعاء والتضرع في الحياة الطيّبة).

وفيما يلي فهرست لمفردات البحث ونتائجه:

الكلمات المفتاحية للبحث:

١ـ الدعاء: هو أنْ تميل الشيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، تقول: دعوت، أدعو، دُعاءً (٢)، ودعوته: إذا سألته وإذا استغثته ... ﴿**وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ ...[الأعراف: ٥٦](٣).

ومفهوم الدعاء هو طلب تهيئة الأسباب والعوامل الخارجة عن دائرة قدرة الانسان، وهذا الطلب يتجه به الإنسان إلى من قدرته لامتناهية، ومن يهون عليه كلّ أمر(٤).

٢ـ التضرع: يعني التذلل والاستكانة لطاعة الله، أو التذلل والمبالغة في السؤال والرغبة، أو الجهر بالدعاء، قال سبحانه ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا**﴾ [الأعراف:٥٥] أي مظهرين الضراعة وهي شدّة الفقر الى الله تعالى، وحقيقته الخشوع(٥).

٣ـ الحياة الطيّبة: يقال: طابَ الشيءُ يطيبُ طيبًا، فهو طيب، وأصل الطيب: ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس(٦).

المبحث الأول: مقومات الحياة الطيّبة:

للحياة الطيّبة التي يبتغيها الإنسان المؤمن حين يقف بين يدي الله داعيًا ومتضرعًا إليه، مقومات متعددة ينبغي على السالك طريق العروج الى الله أنْ يسعى جاهدًا لاكتسابها والتحلّي بها، وفيما يلي أهم هذه المقومات والتي ترشدنا اليها آيات القرآن الكريم، وأحاديث أهل البيت عليهم السلام:

١. الإيمان الراسخ:

قال سبحانه وتعالى: ﴿**مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[النحل:٩٧]. و قد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق سورة النحل، لتؤكد على الإيمان كشرطٍ أساسي من شروط العمل الصالح، ثم تبين بعد ذلك نتائج الأعمال الصالحة المرافقة للإيمان والتي يؤدّيها الإنسان المؤمن، وبأيّ صورةٍ كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة.

إذن فالحياة الطيّبة، في هذه الدنيا هي النتاج الطبيعي للعمل الصالح النابع من الإيمان، أي أنّ المجتمع البشري سيعيش حينها حياةً هادئةً مطمئنةً ملؤها الرفاه والسلم والمحبة والتعاون، بل وكلّ ما يرتبط بالمجتمع من المفاهيم الإنسانيّة، وفي أمان من الآلام الناتجة عن الاستكبار والظلم والطغيان وعبادة الأهواء والأنانية التي تملأ الدنيا ظلامًا وظلامات؛ وعلاوة على كلّ ما تقدّم فإنّ الله سيجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون[٧].

وهذا الإيمان الذي ينبع منه العمل الصالح ينبغي أنْ يكون إيمانًا راسخًا؛ لأنّ الباعث الإيماني، ما لم يُحرز فغالبًا ما تكون الأعمال المنجزة ملوثةً ومشوبةً بآفات؛ العجب والرياء والغرور...وغيرها من الآفات والأفرازات النفسية السيئة، وأمّا إذا ارتوت جذور شجرة العمل الصالح من ماء التوحيد والإيمان بالله، فنادرًا ما يصيب هذا فعل من هذه الآفات؛ ولذلك نرى القرآن الكريم غالبًا ما يربط بين هذين الأمرين لما لأرتباطها من واقعية[٨].

ولهذا يتجّه العبد الى الله بالدعاء والإستغاثة طالبًا منه سبحانه الإيمان الراسخ الباعث على العمل، والذي ينال به الحياة الطيّبة في الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة. قال سبحانه: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**﴾[المؤمنون:١٠٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾[السجدة:١٦].

٢. العمل الصالح

الذي يلفت النظر في القرآن الكريم هو هذا الاقتران الوثيق بين الإيمان والعمل الصالح، إذ نجد هذا الاقتران والتلازم بين المصطلحين في عشرات الآيات؛ وفي كثيرٍ من سور القرآن الكريمة، بل لا يكاد يفترق أحدهما عن الآخر، قال سبحانه وتعالى: ﴿**مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾[البقرة:٦٢]، وقال سبحانه: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**﴾[الطلاق:١١].

وهكذا عشرات الآيات الكريمة التي تقرن الإيمان بالعمل الصالح، وتعد - ووعد الله حقّ- من اجتمعت فيه الصفات الإيمان والعمل الصالح بالجنة وعدم الخوف، والمغفرة، والاستخلاف في الأرض، والحياة الطيّبة وغيرها من فيوض الرحمن والجزاء الأوفى فما هو السر في ذلك؟!

يقول أحد أعلام التفسير في جواب هذا التسائل: "لأنّ الإيمان والعمل يكمل بعضها الآخر، ولو نفذ الإيمان الى أعماق النفس لتجلّت آثاره في الأعمال حتمًا، مثله كمثل مصباح لو أضاء في غرفةٍ شعّ نوره من كلّ نوافذ الغرفة، ومصباح الإيمان كذلك، لو شعّ في قلب إنسانٍ لسطع شعاعه من عين ذلك الإنسان، وأذنه ولسانه ويده ورجله".

ثمَّ يضيف: "فالإيمان بمثابة جذر شجرة، والعمل الصالح ثمرتها، ووجود الثمر السليم دليلٌ على سلامة الجذر، ووجود الجذر السليم يؤدّي الى نمو الثمر الطيب".

ويضيف أيضًا: "من الممكن أنْ يصدر عملٌ صالحٌ أحيانًا من أفراد ليس لهم إيمان، ولكن ذلك لا يحدث باستمرار حتمًا، فالذي يضمن بقاء العمل الصالح هو الإيمان المتغلغل في أعماق وجود ذلك الإنسان، الإيمان الذي يضع الإنسان دومًا أمام مسؤولياته"[٩].

والإنسان المؤمن لما يتجه الى الله بالدعاء والاستقامة كي يجذر الإيمان في قلبه، كذلك يدعو الله لحسن التوفيق للعمل الصالح: قال ربي﴿... **أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ...**﴾[الأحقاف:١٥]

٣. الانقطاع الى الله سبحانه:

الإنقطاع الى الله سبحانه لا يعني الانعزال عن المجتمع والإنزواء والعزلة عن الحياة

الاجتماعية كما يفعله بعض مدعي التصوف السلبي، أو مدعي الرهبنة، فالإنسان اجتماعي بطبعه ولا يستغني عن أخيه الإنسان في جميع تفاصيل حياته، وكما يقول المعري:

الناسُ للناسِ من بدوٍ وحاضرةٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ.

فإذن ينبغي أنْ نفهم ونعي مفهوم (الإنقطاع الى الله) كما فهمه الأنبياء والأئمّة وأولياء الله الصالحين ﷺ، فهؤلاء كانوا مع الله في كلّ حركاتهم وسكناتهم وشؤون حياتهم، واصطفاهم الله لنفسه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[آل عمران:٣٣].

هؤلاء وأمثالهم من عباد الله كانوا يعيشون وسط المجتمع ومع الناس في جميع شؤون حياتهم، وهكذا ينبغي أنْ يكون عليه من يبتغي الحياة الطيبة، فهو ذائب في ذات الله ومنقطع اليه، وفي الوقت نفسه شاخص في مجتمعه، يعيش معهم كأحدهم.

٤ـ التوكل على الله، وتفويض الأمر اليه، والاعتصام به والقناعة:

التوكل، والتفويض، والإعتصام بالله، والقناعة من أهم المقومات والقيَّم التي ينبغي اكتسابها والسعي اليها للوصول إلى الحياة الطيبة. وهي منظومةٌ أخلاقيةٌ قرآنيةٌ وردت في عشرات الآيات القرآنية الكريمة، وحثّ الله فيها المؤمنين على اكتسابها والتمسّك بها للوصول الى رضوان الله واكتساب الحياة الطيّبة.

ولآيات التوكّل في القرآن الكريم دلالاتٌ واضحةٌ كأداة، كما أَنَّ للتوكل فلسفته الخاصة، وعندما نراجع آيات القرآن الكريم والتي تضمّنت آيات التوكل تتضح لنا بجلاء فلسفة التوكل على الله سبحانه، فالتأمل في قوله تعالى:

﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[آل عمران:١٧٣].

وقوله تعالى: ﴿**إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[آل عمران:١٢٢].

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [النحل:٩٩].

فبالتأمّل في هذه الآيات الكريمة وغيرها من الآيات المشابهة لها من حيث المحتوى، ومن

خلال التأمّل في الأجواء والمناسبات التي تزلت بها، نجد "أنَّ القصد من التوكّل هو ألّا يحسّ الإنسان بالضعف مقابل المشكلات العظيمة، بل بتوكّله على قدرة الله المطلقة يرى نفسه فاتحًا ومنتصرًا، وبهذا الترتيب فالتوكّل عامل من عوامل القوة واستمداد الطاقة وسبب في زيادة المقاومة والثبات، هذا أولًا.

وثانيًا: إنّ التوكل ينجي الإنسان من التبعية التي هي أصل الذلّ والعبودية، ويمنحه الحرية والإعتماد على النفس"[١٠].

هذه هي فلسفة التوكل، ولا تعني بحالٍ من الأحوال عدم التوجّه الى العلل والأسباب والعوامل الطبيعية – وهو ما يعرف (بالتواكل) – لأنّ العوامل والعلل الطبيعية لا تنفصل من إرادة الله سبحانه، فهي تسير بأوامره ومشيئته سبحانه، وغير مستقلة عن إرادته كما وأنّ (التوكل) و(القناعة) لها جذور مشتركة، وفلسفتها متشابهة، وفي نفس الوقت متفاوتة، ورواية الامام عليه السلام توضح هذا المعنى إذ يقول: "إنّ الغنا والعزَّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا"[١١]. فالتوكّل في حديث الإمام يعني موطن العزة وعدم الحاجة للآخرين، وقد ورد في الدعاء: "اللهم اني أسألك صدق التوكل عليك"[١٢].

٥ـ استحضار معية الله وقربه:

قال سبحانه وتعالى: ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[التوبة:٤٠].

نزلت هذه الآية الكريمة من سورة التوبة في حادثة خروج النبي صلى الله عليه وآله مهاجرًا الى المدينة بعد أنْ أطلع بمكيدة قريش لقتله، فخرج مع صاحبه، فتبعتهم قريش حتى انتهوا إلى غار ثور واختبئا فيه.

فكانت هذه الأجواء من أشد اللحظات حرجًا في هذا السفرة التاريخي، وفي غار ثور أضطرب (صاحبه) وحزن، فأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله يسرِّي عنه ويقول له: "لا تحزن إنّ الله معنا" فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنودٍ لم تروها [التوبة:٤٠].

ولا نريد أنْ ندخل في الجدل الطويل بين مفسّري الشيعة وأهل السُنّة في شأن الصاحب في هذا

السفر من هو؟ وعلى من نزلت السكينة، وهل هذه الصحبة فضيلة للصاحب في السفر أم أنهّا مذمة...! وكلّ يذهب إلى جهةٍ بإسهاب ممّل[١٣]. وإنّما الحديث عن معية الله التي قالها النبيّ ﷺ، وردّدها القرآن الكريم إذ إنّ هذه المعية من الصفات الثابتة لله سبحانه، وهي على نحوين:

١ـ معية عامة: شاملة لجميع المخلوقات، وتشمل كلّ أحدٍ من المؤمن والكافر، ومن مقتضياتها: الإحاطة بجميع المخلوقات علمًا وقدرة، فهو سبحانه مع كلّ شيءٍ بعلمه وقدرته، وقهره وإحاطته، يقول تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[الحديد:٤] وغيرها من الآيات.

٢ـ المعية الخاصة: وهي معية النصر والتأييد، والحفظ والعناية كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾[النحل:١٢٨]،

وقوله تعالى ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[البقرة:١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿**أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة:١٩٤]

ولكلا المعيتين (العامة والخاصة) آثار جليلة وعظيم؛ إذ يشعر الإنسان برقابة الله فتربي فيه روح المهابة من معصية الله، وفي المعية الخاصة يستشعر العبد المؤمن أنّ الله معه ولا يمكن أنْ يطلبه أحدٌ، فلا وحشة ولا ضعف باستشعار معية الله كما قال موسى ﷺ لما حاصره فرعون وجنوده: ﴿**قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾[الشعراء:٦٢]. وجاء في الحديث القدسي عن النبي ﷺ: يقول الله تعالى: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني" أي بالتوفيق والمعونة[١٤].

واستشعار معية الله من أهم مقومات الوصول الى الحياة الطيّبة التي أرادها الله سبحانه وتعالى لعباده.

٦ـ الشوق الى لقاء الله:

من المقومات الأساسية للحياة الطيّبة عامل الشوق الى لقاء الله سبحانه، ودافع هذا الشوق هو الحب المعنوي من العبد لربه ومن الرب لعبده، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: "مَن أَحَبَّ لقاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لقاءَه، ومَن كرِه لقاءَ اللهِ كرِه اللهُ لقاءَه"[١٥]. وفي غرر الحكم عن علي ﷺ من كتابه ﷺ الى أهل مصر: "وإني إلى لقاء الله لمشتاقٌ، ولحسن ثوابهِ المنتظرٌ راجٍ"[١٦].

والـذي يتشـوق للقـاء الله سـبحانه، يبتغـي اليـه الوسـيلة ويتقـرب اليـه بالأعـمال الصالحـة وخاصـة الصـبر والصـلاة، يقـول سـبحانه وتعـالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ* الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[البقـرة:٤٥-٤٦].

والمقصـود بلقـاء الله ليـس هـو اللقـاء الحـسي كلقـاء أفـراد البـشر مـع بعضهـم؛ لأنّ الله ليـس بجسـم، ولا يحـدّه مـكان، بـل المقصـود مشـاهدة آثـار قـدرة الله، أو أنّ المقصـود الشـهود الباطنـي القلبي؛ لأنّ الانسـان يصـل الى درجـة كأنّـه يـرى الله ببصيرتـه أمامـه، بحيـث لا يبقـى في نفسـه شـك أو تـردد، وهـذه الحالـة قـد تحصـل للأفـراد نتيجـة الطهـر والتقـوى، والعبـادة و تهذيـب النفـس في هـذه الدنيـا[١٧].

وقـد ورد في القـرآن الكريـم أيضًـا: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[الكهـف:١١٠]. ويعقـب أحـد المفسّريـن عـلى هـذه الآيـة الكريمـة بقولـه: " إنّ العمـل الصالـح الـذي ينبـع مـن أهـداف إلهيـة، ويمتـزج بالإخـلاص ويتفاعـل معـه هـو الـذي يكـون جـوازًا للقـاء الله تبـارك وتعـالى...". ثـم يضيـف "والعمـل الصالـح لـه مفهـوم واسـع للغايـة، وهـو يشـمل أي برنامـج مفيـد وبنـاء، فـردي واجتماعـي، وفي أي قضيـة مـن قضايـا الحيـاة"[١٨].

ثـم إنّ الشـوق - وهـو سـفر القلـب الى المحبـوب أحـث السـفر - مـن مراتـب المحبّـة، فالمحبـة عـلى درجـاتٍ منهـا الشـوق، وأطيـب العيـش وألـذّه عـلى الإطـلاق عيـش المحبـين المشـتاقين، والمستأنسـين، فحياتهـم هـي الحيـاة الطيّبـة، ولا حيـاة للعبـد أطيـب ولا أنعـم ولا أهنـأ منهـا، وهـي الحيـاة الطيّبـة المذكـورة في قولـه تعـالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[النحـل:٩٧].

وخلاصـة الأمـر في المبحـث الأول: أنّ أقـصى مـا يتطلـع اليـه الإنسـان المؤمـن السـالك الى الله طريـق التكامـل هـو (الحيـاة الطيّبـة)، وأنّ لهـذه الحيـاة مقومـات أساسـية ينبغـي عليـه تحصيلهـا لكـي يكـون أهـلًا لفيـوض الرحمـن والوصـول الى الحيـاة الطيّبـة التـي وعـده الله بهـا.

المبحث الثاني: أثر الدعاء والتضرع في الحياة الطيّبة:

للدعاء ولتضرع الى الله سبحانه آثار كثيرة في حياة الإنسان، والإنسان المؤمن من شأنه التطلع والسعي الى الحياة الطيّبة التي وعده الله سبحانه بها، فهل للدعاء كوسيلة أثرٌ في الحياة الطيّبة؟ نعم للدعاء آثارٌ كثيرةٌ، وهي آثار للحياة الطيبة نفسها، منها:

أولًا: الوصول الى رتبة النفس المطمئنة:

ممّا لا شك فيه أنّ الدعاء وسيلةٌ للتقرب الى الله، ووسيلة للتكامل الروحي والنفسي والإخلاقي، وبوساطة الدعاء يستطيع الإنسان أنْ يعرج الى الله، ويتكامل ويرتقي بنفسه الى أعلى مراتب السالكين، ويصل بها الى مرتبة النفس المطمئنة التي يأتيها نداء الملائكة عند الاحتضار: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾[الفجر:٢٧-٣٠].

والوصول إلى هذه الرتبة السامية يحتاج إلى جهدٍ، وجهادٍ كبير، بل هو الجهاد الأكبر كما ورد في الروايات: "أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه"[١٩]. والدعاء ذكر، ووسيلة يبتغي من خلاله العبد الداعي الوصول الى طمأنينة النفس، ففي الزيارة المعروفة بأمين الله، وهي زيارة غاية في الاعتبار مروية في جميع كتب الزيارات: "اللهم فاجعل نفسي مطمئنةً بقدرك، راضيةً بقضائك، مولعةً بذكرك ودعائك"[٢٠]، فالإمام السجاد عليه السلام يدعو الله ويطلب منه سبحانه أنْ يجعل نفسه مطمئنةً، راضيةً، مولعةً بذكرك ودعائك.

وورد في دعاء أبي حمزة الثمالي، وهو من الأدعية المعتبرة أيضًا ويُتلى في أسحار شهر رمضان المبارك: "اسألك اللهم من خير ما سألك منه عبادك الصالحون، يا خير من سُئل، وأجودَ من أعطى، أعطني سُؤلي في نفسي... وأصلح جميع أَحوالي، واجعلني ممّن أَطلت عُمرهُ وحَسَنتَ عَمَلهُ.. وأَحييتهَ حياةً طيّبة في أدومَ السُّرُور، واسبغ الكرامة وأتم العييش، إنّك تَفعلُ ما تشاءُ ولا يَفعَلُ ما يشاءُ غيرك"[٢١].

ثانيًا: الدعاء، عزة، وقوة، ومنعة وعدة:

ورد في أكثر من حديث شريف روي عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام التعبير عن الدعاء بأنّه

(سلاح)، وأنّه (ترس)، فقد روي عن النبيّ ﷺ: "الدُعاء سلاحٌ، وعَمود الدين، ونور السماوات والأرض"(٢٢). وروي عن علي ﷺ: "الدعاءُ تُرسُ المؤمن"(٢٣). وعن الإمام الرضا ﷺ: "عليكم بسلاح الأنبياء، فقيل: وما سلاح الأنبياء؟ قال: الدعاء"(٢٤).

ومن الواضح أنّ السلاح رمز قوة المؤمن في مواجهة الأعداء، فينبغي إعداد هذه القوة كما أمرنا الله بذلك: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**﴾ [الانفال:٦٠]. كذلك الدعاء (سلاح، وترس، وقوة، وعدة) للإنسان المؤمن، وقد ورد في الأدعية الشريفة التعبيرعن الدعاء بالمفزع: "يا مَفْزَعِي عِنْدَ كُرْبَتي، وَيا غَوْثي عِنْدَ شِدَّتي اِلَيْكَ فَزِعْتُ، وَبِكَ اسْتَغَثْتُ، وَبِكَ لُذْتُ لا أَلُوذُ بِسِواكَ وَلا أَطْلُبُ الْفَرَجَ إِلَّا مِنْكَ، فَأَغِثْني وَفَرِّجْ عَنّي، وَرَضِّني مِنَ الْعَيْشِ بِما قَسَمْتَ لي يا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ" (٢٥).

والحياة الطيّبة، تستلزم هذه القوة والمنعة، والتي يستمدها ويطلبها الإنسان المؤمن من منبعها وهو الله سبحانه وتعالى، فيدعوه ويستغيث به، وهو عند حسن ظن عبده

ثالثًا: الدعاء يورث القناعة والرضا بقضاء الله وقدره:

القناعة: راحة نفسية، وصفة إيمانية، ومن أهم معالم الحياة الطيّبة، وقد ورد في تعريفها:

القناعة: الاجتزاء بالتيسير من الأعراض المحتاج اليها، يقال: "قَنَع يَقنعُ قَناعةً وقنعانًا" إذا رضي، وَقَنَعَ يَقنَعُ قنوعًا: إذا تسأل: قال تعالى: ﴿**وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ**﴾[الحج:٣٦]، قال بعضهم: "القانعَ هو السائل الذي لا يلح في السؤال، ويرضى بما يأتيه عفوًا"(٢٦).

وعندما سئل الإمام علي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طيّبة**﴾[النحل:٩٧] قال: هي القناعة(٢٧).

ولا شك في أنّ هذا التفسير لا يعني حصر الحياة الطيّبة (بالقناعة)، بل هو بيان لأحد مصاديقها الواضحة جدًا، حيث إنّ الإنسان لو أعطيت له الدنيا بكاملها، وسلبت منه روح القناعة، فإنّه والحال هذه سيعيش دائمًا في عذابٍ وألمٍ وحسرة، وبعكس ذلك، فإذا امتلك الإنسان القناعة وترك الحرص والطمع فإنّه سيعيش مطمئنًا راضيًا على الدوام.

وقد ورد في رواياتٍ أخرى تفسير الحياة الطيّبة، بمعنى الرضا بقسم الله، وهذا المعنى قريب الأفق مع القناعة[٢٨].

والقناعة تعني غنى النفس وأنّ يكون الإنسان متحررًا من أسر شهواته، قانعًا بما قسم الله، ولا يكون منقادًا لدنيا تسيره وتجعل منه عبدًا ذليلًا لأطماع لا تنتهي عند حد يقول الشاعر:

العَبْد حرٌّ إن قَنَعْ والحُرّ عبدٌ إنْ طَمَعْ
فأقنَعْ ولا تَطْمعُ فما شيءً يشينُ سوى الطَمَعْ[٢٩]

وعندما نعود الى أدعية أهل البيت عليهم السلام نجد التأكيد على صفة القناعة أو (قناعة النفس) بوصفها عنوان شخصية الإنسان الذي يعيش الحياة الطيّبة. جاء في مقاطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، وهو من أعظم الأدعية في هذا اليوم الشريف، وتصف الرواية حالة الإمام عليه السلام. ثمَّ اندفع في المسألة واجتهد في الدعاء، وقال وعيناه سالتا دموعًا:

"اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك، وأسعدني بتقواك، اللهم أجعل غناي في نفسي... الهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيرًا في فقري؟"[٣٠].

رابعًا: الدعاء: كشف للفقر المطلق في ساحة الغني المطلق:

يستعمل مصطلح الفقر في القرآن الكريم على أوجه متعددة منها:

١ـ وجود الحاجة الضرورية: وذلك عام للإنسان ما دام في دار الدنيا، بل عام للموجودات كلها، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[فاطر: ١٥].

ومنها الفقر الى الله، وإيّاه عني بقوله تعالى: ﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾[٣١] [القصص: ٢٤].

فلو فسّرنا (الفقر) بالحاجة، فالله تعالى يعطي عباده بسبب فقرهم، بل يعطي الكون كلّه بسبب الفقر والحاجة إليه، فالإنسان والملائكة والجن والحيوان والجماد والنبات، كلهم يرزقهم الله بفقرهم وحاجتهم.

والفقر منازل رحمة الله سبحانه وتعالى، ورحمة الله تهبط عند الحاجة والفقر، فالطفل الرضيع حينما يجوع، يعطفا الله سبحانه عليه قلب أُمه فترضعه؛ فالفقر والحاجة من منازل رحمة الله سبحانه أدركها العبد أم لم يدركها.

ونحن نقرأ في الدعاء المعروف في شهر رجب: "يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله، ومن لم يعرفه تحننا منه ورحمة، أعطني بمسألتي إياك جميع خير الدنيا وجميع خير الآخرة"[٣٢]. وهكذا في دعاء الافتتاح الوارد في شهر رمضان المبارك: "فكم يا إلهي من كربةٍ قد فرجتها، وهموم قد كشفتها، وعثرةٍ قد أقلتها، ورحمةٍ قد نشرتها، وحلقةِ بلاءٍ قد فككتها"[٣٣].

فالله (عزَّ وجلَّ) يمّن علينا، وينزل علينا بركاته وخيراته ويفرج عنا كروبنا، ويطعمنا، ويشفينا، ويكسونا، ويشفينا، ويؤوينا، لا لشيء سوى فقرنا من جانب، وكرمه من جانب آخر. هذا هو عنصر الحاجة في (الفقر) فأننا محتاجون ومفتقرون إلى رحمة الله تعالى دائمًا وأبدًا فتنزل من قبله تعالى الرحمة علينا. إلا إنّ هنالك عنصرًا آخر في (الفقر)، وهو (وعي الفقر)، فالإنسان الواعي لفقره، يجتذب ويستنزل من رحمة الله ما لم يستنزله الفقر الذي لا يعيه صاحبه.

والإنسان على كل حال فقير الى الله بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[فاطر:١٥]. فإذا كان الإنسان يفقه فقره ويعيه يكون على بصيرة من أمره، ويستنزل من رحمة الله وبركاته في هذا المنزل، ما لا يستنزل له في منزل الفقر والحاجة المجردة من الوعي، ومنزل وعي الفقر أقرب الى الله من منزل الفقر.

وهنالك العنصر المهم في (الفقر) هو الدعاء، والذي يعني رفع الفقر الى الله سبحانه، ويعرض العبد فقره وحاجته على ربه، وذلك حينما يطلب من الله، ويسأله ويستغيث به، ويتوسل إليه تبارك وتعالى.

وهذه الحالة هي أرفع منازل العبد بين يدي الله، يكون فيها العبد من المضطرين إليه، والمحتاجين لرحمته يرفع إليه تعالى فقره وحاجته واضطراره بقوله تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾[النمل:٦٢].

وهذا الآية المباركة تبين بشكل واضح كيف يرفع العبد فقره الى الله سبحانه في الاضطرار ويبثّه بين يدي ربّه، فالمضطر هو الذي يستنزل رحمة الله، ويستجيب الله تعالى له.

هذه هي العناصر الثلاثة التي يتألف منها الدعاء، بل هي قلب الدعاء وروحه، ولولاها يكون الدعاء فقط لقلقة لسان[٣٤].

والفقر والغنى وإنْ كثرت الروايات فيها بين المدح والذم أو تفضيل أحدهما على الآخر، ومحاولة الجمع بين أخبارها والتي قد تبدوا فيها بعض التعارض[٣٥]؛ إلا إنّ الأفتقار الى الله سبحانه وطلب الحاجة منه عزة للإنسان المؤمن وصونًا لكرامته وماء وجهه من أنْ يذل عند الناس، و لهذا يطلب العبد من ربه ويتذلل بين يديه، كما جاء في الدعاء الروي عن أمير المؤمنين ﷺ في نهج البلاغة: "اللهم صُنْ وَجهِي باليَسَارِ، ولا تبذل جَاهِي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك. واستعطِفَ شرار خلقكَ، وأُبْتَلَى بحمد من أعطاني، وأفتتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كلّه، ولي الإعطاء والمنع، إنّك على كلّ شيء قدير"[٣٦].

وعند كلمة سيد البلغاء في نهج البلاغة نتوقف، وعن شرح مفرادتها نحجم؛ لأنّها واضحة الدلالة بليغة المعنى.

وبهذا الحديث ننهي بحثنا عن أثر الدعاء والتضرع في الحياة الطيّبة، والله نسأل حسن التوفيق والسداد لحياة طيّبة في الدنيا، وعاقبة حسنة في الآخرة، إنّه سبحانه ولي التوفيق والسداد والحمد الله رب العالمين.

الهوامش

١- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٩٣/ ٣١٨.
٢- ابن فارس، أحمد، معجم المقاييس في اللغة، ٣٥٦.
٣- راغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، مادة دعا.
٤- المكارم شيرازي، ناصر، تفسير الأمثل، ١/ ٥٣٢.
٥- م.ن، ١ / ٥٦٠.
٦- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، مادة: طيب.
٧- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٨/ ٣١٣.
٨- م.ن، ٨/ ٣١٦.
٩- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ١/ ١٣١.
١٠- م.ن ، ٧/ ٤٧ بتصرف.
١١- الرواية عن الإمام الصادق ﷺ: يرويها الكليني بإسناد، أصول الكافي: المجلد الثاني باب التفويض الى الله والتوكل عليه، الحديث: ٣.
١٢- القمّي، عباس، مفاتيح الجنان: أدعية شهر رجب.
١٣- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٦/ ٥٦ وما بعدها.
١٤- البيضاوي، عبدالله بن عمر، تحفة الأمراء في شرح مصابيح السُنّة.
١٥- الهندي، علي المتقي بن حسام، كنز العمال، حديث رقم: ٤٢١٢١.
١٦- الآمدي، عبد الواحدبن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة رقم: ٨٤٢٥.
١٧- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١/ ١٩٤.
١٨- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين، ١/ ٤٢٩.
١٩- الآمدي، عبد الواحدبن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة: ٣٢٣٢.
٢٠- القمّي، عباس، مفاتيح الجنان: ٥١٤-٥١٥، زيارة أمين الله.
٢١- م.ن، ٣٠٥-٣٠٦، من دعاء أبي حمزة الثمالي.
٢٢- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٤٦٨، الحديث الأول.
٢٣- م.ن، ٢/ ٤٦٧ الحديث الثامن.
٢٤- م.ن، ٢/ ٤٦٦ الحديث الثالث.
٢٥- القمّي، عباس، مفاتيح الجنان: ٣١٣ دعاء يا مفزعي.
٢٦- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات الفاظ القرآن، ٦٨٥ مادة قنع.
٢٧- نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٢٩.
٢٨- المكارم الشيرازي، ناصر، تفسير الأمثل، ٨/ ٣١٨.
٢٩- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، ٦٨٥ (الحاشية) مادة:قنع.

٣٠- القمّي، عباس، مفاتيح الجنان، ٣٩٧ وما بعدها دعاء الإمام الحسين في عرفة.
٣١- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، ٦٤؛ و المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٧٢/ ٢٦-٣١.
٣٢- القمّي، عباس، مفاتيح الجنان، أعمال شهر رجب، ٢٢٥.
٣٣- م.ن، ٢٨٢، أعمال شهر رمضان.
٣٤- الآصفي، محمد محمدي، الدعاء- وصلاة الليل، وآثارها على الفرد والمجتمع.
٣٥- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٧٢/ ٣١-٢٦.
٣٦- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ١١/ ٢٥٥.

المصادر والمراجع

* ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعتزلي، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، لبنان، مطبعة دار إحياء التراث العربي.
* أبن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمر، لبنان- بيروت، الناشر: دار الفكر.
* ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب بن سعد، مدارج السالكين، بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) تحقيق: محمد البغدادي، بيروت- لبنان، مطبعة دار الكتاب العربي، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
* الآصفي، محمد مهدي، الدعاء- وصلاة الليل، وآثارها على الفرد والمجتمع حوار شامل، حاوره عبد الحسين خضير، قم، الناشر: انتشارات بخشايش، ١٤٣٤هـ
* الآمدي، عبد الواحدبن محمد التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، تحقيق: محمد سعيد الطريحي، بيروت- لبنان، الناشر: مطبعة دارالقارئ.
* البيضاوي، القاضي، ناصر الدين عبدالله بن عمر، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، الكويت، مطبعة ونشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
* الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن الفضل، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، قم، طبعة ذوي القربى، ١٤٣١هـ.
* الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن، التفسير الكبير أو (مفتاح الغيب)، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، طبعة دار الفكر، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
* القمي، عباس بن محمد رضا، مفاتيح الجنان، قم، طبعة مؤسسة انصاريان، ١٤٢١هـ.
* الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، المجلد الثاني، قم، طبعة دار الكتب الإسلامية.
* المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مطبعة مؤسسة الرسالة.
* المجلسي، محمد باقر، بحارالأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة والأطهار، ط٢، بيروت لبنان، طبعة دار احياء التراث العربي، ١٤٠٣هـ.
* المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١، قم، طبعة مدرسة أمير المؤمنين، ١٤٢١هـ.